" وا إســـلامـــاه "

[اختصار لكتاب: قصة التتار من البداية حتى عين جالوت]

اختصره

عبدالله بن سعود آل معدي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

إن من رحمة الله أن ثبت للخلق سننا لا تتغير ولا تتبدل، فبعض الأحداث التي وقعت في التاريخ قد تقع مستقبلاً ولو بصورة مختلفة نوعاً ما، ومن هنا جاءت أهمية دراسة التاريخ.

يقول تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يوسف: ١١١ ولذلك فإن ذكر التتار وما صنعوه بالمسلمين وانتصار المسلمين عليهم أخيرًا هي لأخذ العبرة والعظة، واستلهام الدروس منها، حتى لا تتكرر الأخطاء، ونأخذ الحذر، ونعمل بأسباب النصر.

وذكر التتار ودولتهم وإفسادهم في الأرض وعلو رايتهم ومن ثم سقوطها في عين جالوت، وقيام دول وسقوط أخرى، والأرقام التي صاحبت اجتياحهم، وتشابهها –نوعاً ما – بما يحدث للمسلمين الآن، كل ذلك يدعونا لقراءة تلك الأحداث الدامية والبحث فيها عن آيات الله وسننه والوقوف مع أسماء الله –عز وجل – التي تشتمل على معاني الملك والنصر والعزة والتفرد واللطف والخبرة.

ولقد قمت في هذه الورقات –بعد إشارة من أخي الموفق الأستاذ: إبراهيم العوين - باختصار –أرجو ألا يكون مخلاً - لكتاب الدكتور: راغب السرجاني –حفظه الله - والذي عنونه بـ (قصة التتار من البداية إلى عين جالوت)، وتدخلت بتعبير أحياناً ونقلت نص الكتاب أحياناً أخرى، وبتقديم وتأخير، وإضافة وحذف؛ ليكون سهلاً على المبتدئ في قراءة التاريخ؛ فالغاية ألا ينسى المسلمون تاريخهم، وأن يحملوا في قلوبهم هم الدين، وبغض الكافرين، والرجوع لكتاب الله المبين. ومن أراد الاستزادة فدونه كتاب الدكتور المذكور آنفاً ففيه تلبية لنَهَم المريد وطالب المزيد.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل مباركاً، وأن ينفع به.

والحمد لله رب العالمين

نظرة على العالم الإسلامي قبل اجتياح التتار (المغول)

كان العالم الإسلامي المترامي الأطراف في أوائل القرن السابع الهجري يعيش في تنافر واضطرابات، مع أنه يرهب الأعداء باسم الإسلام فقط، وإلا فأبناؤه في خلاف، فنرى مثلاً:

١- الخلافة العباسية المتهتكة داخلياً لا تملك لإرهاب الأعداء إلا الاسم فقط، ولا تسيطر – حقيقة – إلا على بغداد.

٢- مصر والحجاز والشام بأيدي الأيوبيين الذين ليسوا كأجدادهم، ليسوا كـ(صلاح الدين)، بل نراهم سلموا بعض إمارات الشام للصليبيين!

٣- بلاد المغرب والأندلس تحت حكم الموحدين، وقد بدأت تلك البلاد بالاحتضار.

٤- (باكستان –أفغانستان –تركمانستان –أوزباكستان – طاجاكستان) كل هذه الأقاليم تحت مسمى: الدولة الخوارزمية، تملك معظم آسيا لكنها على خلاف مع الخلافة العباسية.

٥- فارس (إيران) تحت حكم الإسماعيلية الباطنية الرافضية.

٦- الأناضول (تركيا) تحت حكم السلاجقة، لكنهم أحفاد تغيروا كثيراً فلم يكونوا كجدهم (ألب أرسلان).

هذا حال القوة الأولى في العالم، أما القوة الثانية فهي قوة النصارى الصليبيين، ثم ظهرت قوة ثالثة مرعبة هي قوة التتار (المغول).

خريطة(٢): الدويلات و الإمارات الإسلامية في أوائل القرن السابع الهجري

مقدمة ابن الأثير:

عند الحديث عن التتار (المغول) واجتياحهم للعالم الإسلامي الذي بكاه العالم بمختلف دياناته ومذاهبه لابد أن يرفق معه كلام المؤرخ ابن الأثير – رحمه الله – والذي عاصر تلك الأحداث ودونها وقدّم لها بمقدمة تصور لك مدى عظم الفاجعة التي وقعت على قلوب المسلمين! يقول ابن الأثير:

لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم إليه رجلاً وأؤخر أخرى. ويقول رحمه اللّه: فمن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام

والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً. ثم يقول: إلا أنه حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف، ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدي نفعاً. أي: أن كتابة القصة أو عدم كتابتها لن يقدم ولن يؤخر، فلماذا لا تُكتب ليستفيد المسلمون بعد ذلك منها؟ ثم قال مقدماً لقصة التتار: هذا الفصل يتضمن ذكرى الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التي عقمت الأيام والليالي عن مثلها، عمت الخلائق، وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق اللّٰه سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها. ثم يقول: ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يبقي على من اتبعه، ويُهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد. فعند ابن الأثير رحمه اللّٰه أن فتنة التتار وبأسهم وقوتهم أشد من فتنة الدجال، وفتنة الدجال أشد وأمر، ولكن من شدة المأساة وقع هذا الكلام على لسانه رحمه اللّٰه.

من هم التتار؟ وأين ظهروا؟

يطلق اسم التتار (المغول) على الأقوام الذين نشأوا في شمال الصين (منغوليا) وأول زعيم لهم هو (جنكيز خان) ومعناه: (قاهر العالم) وكان رجلاً سفاكاً للدماء. ظهروا عام ٦٠٣ هـ، وبدأوا يتوسعون شيئاً فشيئاً.

وديانتهم خليط من جميع الأديان، ولهم كتاب وضعه جنكيزخان ينضح بالترهات والخزعبلات، وكانوا يتميزون بالغلظة والبأس الشديد، وسرعة الانتشار والأعداد المهولة، ومن رأى أفعالهم ظن أنه لم يكن لهم قصد في حروبهم إلا "إبادة العالم وإفناء النوع، لا الملك والمال".

خريطة (٣) : ظهور مملكة التتار سنة ٦٠٣هـ

السبب في غزو التتار للعالم الإسلامي:

ذكرت عدة أسباب لغزوهم العالم الإسلامي، فذُكر من ذلك: أنهم طمعوا في التوسع ولكن لا بد لهم من ذريعة تجعل ذلك التوسع حقاً متاحاً، فحدث أنهم أرسلوا تجاراً منهم خرجوا من بلادهم ودخلوا الدولة الخوارزمية، فأمسكهم حاكم إحدى المدن الخوارزمية فقتلهم إما عمداً أو لأنهم جواسيس أو ثأراً. ومن بعد هذه الحادثة التي أغضبت جنكيزخان بدأ الإعصار التتري الرهيب.

بدء الهجمة التترية على الدولة الخوارزمية (دولة خوارزم شاه) :

بدأ جنكيزخان في هجمته الشرسة، فهزم المسلمين بأعداد جيشه الهائلة وقتلوا خلقاً كثيراً.

خريطة (٤) : بدء الغزو التتري للدولة الخوارزمية

اجتياح بخارى (بأوزباكستان) سنة ٦١٦هـ:

قدم جنكيزخان على بخارى وحاصرها، وطالب أهلها بتسليم المدينة وأن لهم الأمان إن هم فعلوا ذلك، فانقسم أهلها بين (مستسلم

ومجاهد)، ولكنها في نهاية الأمر فتحت أبوابها للتتار، وأعطى جنكيزخان أهلها الأمان مكراً وخديعة ليسيطر على القلعة التي تحصن بها مجاهدو المدينة الرافضين تسليمها للتتار، حاصرهم حتى تمكن منهم فقتلهم جميعاً، ثم سأل عن أموال المدينة وكنوزها فدُلّ عليها، ثم خان عهده وعطف على أهل المدينة وأعمل السيف فيهم فقتل منهم خلقاً كثيراً، وأفسد جنوده وسرقوا ودمروا وزنوا بالنساء أمام أهليهن، حتى كثر البكاء والضجيج في المدينة، وأصبحت المدينة خاوية على عروشها ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ آل عمران: ١٤٠.

اجتياح سمرقند (بأوزباكستان أيضاً) سنة ٦١٧هـ:

لما قفل التتار من بخارى أخذوا معهم أسارى المسلمين ليترسوا بهم ويكاثروا بهم، وعند وصول جنكيزخان إلى سمرقند ضرب عليها الحصار، وخرج له جيش سمرقند، لكنه خدعهم لما أظهر لهم انسحابه فلحقه المجاهدون فلما رآهم بعدوا عن مدينتهم كرّ عليهم فقتلهم جميعاً، قتل ٧٠ ألفاً من المجاهدين ولم يبق أحداً، ثم دخل المدينة وفعل بهم ما يقف منه شعر الرأس.

هروب محمد بن خوارزم شاه زعيم الدولة الخوارزمية:

هرب هذا الزعيم وأتبعه جنكيزخان بمجموعة صغيرة من جيشه تطارده وبقي هو وجيشه في سمرقند، ولك أن تتصور كيف شقت هذه المجموعة التترية العالم الإسلامي تطارده ولم يعترضها أحد من المسلمين!

هرب محمد بن خوارزم هذا إلى جزيرة بقزوين وبقي فيها راضياً بحياة الفقر والذل بعد العز والجاه حتى مات فيها ولم يوجد له ما يكفن به فكفن في فراشه!

وعند رجوع تلك المجموعة التترية لسمرقند حيث جنكيزخان صادفوا أهل محمد بن خوارزم شاه في الطريق فسبوهم وسرقوا ما لديهم من ذخائر وأموال وأرسلوهم إلى جنكيزخان.

اجتياح فارس وأذربيجان وأرمينيا وجورجيا.

اجتياح خراسان سنة ٦١٧هـ والذي يضم (بلخ (بأفغانستان) – مرو (بتركمانستان) – نيسابور – هراة):

بلخ:

كان أهلها في رعب شديد من أخبار التتار، ولكن لا مناص فقد حضر التتار، فطلب أهل مدينة بلخ الأمان فأعطاهم جنكيزخان الأمان فعلاً! لماذا؟ لأنه قرر أن يأخذهم معه ليعاونوه في فتح المدينة التالية (مرو)! وهكذا كان كيد هذا اللعين جنكيزخان يريد أن يضرب المسلمين بالمسلمين، ولأن الذل والرعب استولى على قلوب المسلمين وافقوا على صحبته وإن كانوا سيقاتلون إخوانهم! كما يستخدم الغرب اليوم بعض المسلمين لقتال بعضهم!

مأساة مرو سنة ٦١٧هـ :

اتجه التتار بعد بلخ إلى مدينة مرو، فوجدوا (٢٠٠) ألف من المجاهدين على أبوابها، ودارت معركة حامية بينهم كانت نهايتها للتتار

وللأسف. هُزم المسلمون لأنهم مهزومون نفسياً من قبل. وخدع التتار أمير مرو لما أمّلوه بإبقائه أميراً على مرو مقابل تسليم المدينة، فصدق ذلك. وخرج إليهم مع خواصه، وما إن تمكن التتار منه حتى قيدوه وأمروه بكتابة أسماء الأعيان والتجار ففعل، وذلك ليستولوا على أموالهم. ثم أصدرت الأوامر بقتل الأمير والأعيان وبدأ اجتياح المدينة وقتل أهلها حتى قتل كل أهل تلك المدينة وعددهم (٧٠٠) ألف مسلم في واقعة تقشعر منها الأبدان. وفنيت مدينة مرو، واختفى ذكرها. سألت إحدى أمهات المؤمنين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: "أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخَبَث!" رواه البخاري.

اجتياح خوارزم سنة ٦١٧هـ :

ثم زحفوا باتجاه خوارزم ودار بينهم وبين المسلمين قتال عنيف كانت السيطرة فيه للتتار وانتهى بهروب المسلمين واختبائهم في السراديب والخنادق والطرقات، فقام التتار بعمل بشع وكأنهم ما جاؤوا إلا لإبادة أهل الأرض، قاموا بهدم سد ضخم كان يمنع مياه نهر جيحون عن المدينة، فاندفعت المياه كالسيل العرم تهدم ما أمامها وتغرق البشر، فغرقت المدينة وتهدمت الديار، فمن نجا من القتل لم ينج من الغرق، وأصبحت المدينة خراباً كأن لم تغن بالأمس.

ثم تم اجتياح أفغانستان.

وخلاصة ما سبق:

وصل التتار من الصين إلى كازاخستان ثم أوزباكستان ثم تركمانستان ثم أفغانستان ثم إيران ثم أذربيجان ثم أرمينيا ثم جورجيا واقتربوا من العراق. كل هذا في سنة واحدة هي سنة ٦١٧هـ . وما الظن لو أن بلاد المسلمين تلك عملت بقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ الأنفال: ٤٦ ؟!

خريطة (٦) : توسع مملكة التتار داخل العالم الإسلامي حتى سنة ٦٢٤هـ

العودة إلى أذربيجان سنة ٦١٨هـ :

وقد كانت امرأة تحكم هذه المدينة، دخل التتار وهم يتترسون بأسرى المسلمين فقتلوا ونهبوا ما خرج عن الإحصاء. فكانت المرأة التترية الواحدة تدخل الدار وفيها أهلها فتقتلهم جميعاً دون مقاومة! وكان

التتري يدخل درباً فيه (١٠٠) مسلم فما يزال يقاتلهم واحداً واحداً حتى يأتي عليهم دون دفاع من أحدهم.

مدينة تبريز الإيرانية:

كان القائد الذي تولى إمرة البلاد رجل يفقه دينه ودنياه اسمه: (شمس الدين الطغرائي)، أعاد لأهل المدينة حمية الدين، وضخ في قلوبهم حب الجهاد، وشجعهم، وعلمهم ما كانوا في حاجة إليه، وحمسهم للقاء التتار، فكان نتيجة ذلك أن رفع أهل المدينة راية الجهاد! ولما علم التتار بأمر المدينة اتخذوا قراراً عجيباً: لقد قرروا ألا يتعرضوا لهذه المدينة، لقد ألقى الله الرعب في قلوبهم، فكانت هذه شمعة في ليل حالك السواد، وسنة من سنن الله.

أخبار عجيبة في ظل هيمنة التتار وهجومهم على بلاد المسلمين في كل مكان:

١ -الدولة العباسية بقيادة الخليفة (الناصر لدين اللّٰه) يتقاتل مع أمير من أمراء الدولة الخوارزمية التي سبق أن بيّنا أنها ليست على وفاق مع الخلافة العباسية مع أنهم جميعاً يدينون بالإسلام! فلم يعد يدري المسلمون من أين تأتي الهلكة؟ أمن التتار أم من المسلمين؟!

٢ -حادثة عجيبة: أتمت إحدى الممالك النصرانية صلحاً مع المسلمين، وكانت تملك النصارى امرأة، فأرادت الزواج من شخص يدير عنها أمر البلاد، فبلغ ذلك بعض ملوك

المسلمين، فسارع في ذلة وخسة لعرض ابنه على الزواج منها، لكنها رفضته لأنه مسلم، فعرض عليها أن يتنصر ابنه لأجل ذلك، فرضيت، وفعلاً: تنصر الابن وتزوجته الملكة، وأراد الله أن يكون آية لمن خلفه حين رآها مع الأيام تعشق غيره وتكرهه، حتى أنه دخل عليها مرة فوجدها مع خادم لها كانت تعشقه وهما على سرير واحد، فاعترض عليها، فأمرته أن يرضى بذلك فرفض، فأمرت رجالها أن ينقلوه لمدينة أخرى، وحجرت عليه هناك، وتزوجت غيره!

كانت تلك الأحداث السابقة في غضون عشرين عاماً فقط، وفي عام ٦٢٤هـ هلك جنكيزخان وتولى بعده (أوكيتاي) وهدأت هجمات التتار نسبياً من ٦٢٤هـ حتى ٦٢٧هـ إلا أن عام ٦٢٦هـ شهد تسليم بيت المقدس للصليبين مقابل بعض الإمارات!

الاجتياح التتري الثاني

نهاية جلال الدين ملك الخوارزمية:

تولى (أوكيتاي) زمام الأمور التترية، فكانت نهاية جلال الدين ملك الخوارزمية في زمنه والتي لم تكن بعيدة عن نهاية أبيه الذي مات في جزيرة ولم يكفن إلا بفراشه، فكيف كانت نهاية الابن؟

بعد لقاء دام بينه وبين التتار هرب جلال الدين من قطر إلى قطر واختفى شهوراً حتى وصل إلى إحدى القرى فلقيه أحد الفلاحين، فسأله عن اسمه فعرّفه بنفسه وضخم ذاته وقال: أنا ملك الخوارزمية،

وكان جلال الدين هذا قد قتل جنوده أخ هذا الفلاح، سكت الفلاح وأظهر له البشر وأكرمه حتى اطمأن جلال الدين فنام عنده، فلما تيقن الفلاح من نومه قام إليه بفأسه وقتله، وأخذ جواهره التي عليه وأدّاها إلى أمير تلك المنطقة والذي كان قد تضرر من جلال الدين أيضاً! نعم.. فقد قال تعالى: ﴿ أَيۡنَمَا تَكُونُواْ يُدۡرِككُّمُ ٱلۡمَوۡتُ وَلَوۡ كُنتُمۡ فِي بُرُوجٖ مُّشَيَّدَةٖۗ ﴾ النساء: ٧٨

صور مخزية رواها ابن الأثير في وصف حال الضعف الذي وصل إليه المسلمون، وذلك عام ٦٢٨هـ:

- كان التتري يدخل قرية بمفرده فيرفع سيفه ويقتل تقتيلاً ولا يجسر أحد أن يمنعه ويصده!
- أخذ أحد التتار رجلاً يريد قتله فلم يجد ما يقتله به، فأمره أن يضع رأسه ولا يبرح من مكانه ففعل! وانتظر حتى جاء التتري بسيف فقتله!

ومن عام ٦٢٨هـ حتى ٦٣٩هـ حروب دائمة وقتل واستيلاء للتتار على نصف أوروبا تقريباً. وابتلع التتار شرق العالم الإسلامي تقريباً، أما القسم الأوسط منه فهو في ضعف وتشتت:

خريطة (١١) : مملكة التتار سنة ٦٣٩هـ

ومن عام ٦٣٩هـ حتى عام ٦٤٩هـ لم يكن هناك توسع يذكر، إنما سعى التتار في تثبيت ملكهم وتوطيده.

الاجتياح التتري الثالث

منكوخان وهولاكو:

هلك (أوكيتاي) وتولى المجرم (منكوخان) زعامة التتار، وبدأ يفكر في إسقاط الخلافة العباسية واجتياح الشام ومصر. وكان له إخوة ثلاثة أشهرهم (هولاكو) الذي يعد من أبشع شخصيات تاريخ الأرض، والذي سقطت على يديه الخلافة العباسية!

هولاكو يعد لإسقاط الخلافة العباسية:

ظل هذا المجرم مع شوقه الشديد لكنوز العباسيين يعد العدة في صبر وأناة لإسقاط الخلافة مدة خمس سنوات من عام ٦٤٩هـ حتى ٦٥٤هـ. فماذا كان يصنع طوال السنوات الخمس تلك؟

١- **تجهيز مسرح العمليات** : بدأ في إصلاح الطرق من الصين إلى العراق لاستيعاب الأعداد الهائلة من التتار والدواب. وأقام الجسور على الأنهار لضمان استمرار عملية التموين، وجهز ناقلات ضخمة تنقل العدد لحصار بغداد. وقام –في ذكاء عجيب– بإخلاء الطرق من الصين حتى بغداد ومنع الماشية منها لضمان كثرة المرعى للأعداد الهائلة من الخيول وغيرها؛ وبذلك لا يحتاج لحمل أعلاف لها!

٢- **الاستعداد السياسي والدبلوماسي**: اتفق مع النصارى – مع أن النصارى ذاقوا ويلات التتار – على التوحد ضد المسلمين، وهكذا الأعداء مختلفون إلا إن كان المسلمون هم الخصم.

ودعا هولاكو أمير الموصل بالعراق (بدر الدين لؤلؤ) ليتحالف معه فجاء راكضاً! وجاء سلطانا السلاجقة من (شمال العراق (تركيا)) ليتحالفا مع هولاكو. وكذلك رضخ أمير حلب ودمشق (الناصر يوسف) مع أنه حفيد صلاح الدين بل إنه أرسل ابنه ليكون أميراً من أمراء جيش هولاكو وتحت طاعته. ولحق بأولئك أمير حمص ليقدم الولاء مع سابقيه. يقول تعالى:

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ المائدة: ٥٢

ولاتزال الفتن تعرض على القلوب حتى تزل الأرجل إن لم يثبتها الله، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من دعاء : "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك" صححه الألباني.

ومن الأمور المفصلية في عمل هولاكو الدبلوماسي أنه استطاع أن يصل إلى كبير وزراء الخليفة العباسي (مؤيد الدين ابن العلقمي) مع العجب البالغ من أن يضع خليفة مسلم وزيراً له رافضياً مما يدل على ضحالة فكر الخليفة بل والأسوأ من ذلك بقاء هذا الوزير في منصبه مدة ١٤ عاماً! وهذا الوصول من هولاكو لابن العلقمي ساهم كثيراً في سقوط الخلافة العباسية حين كان هذا الوزير الرافضي يبدي آراءً مضللة للخليفة حقداً على أهل السنة! يقول صلى الله عليه وسلم: "ما استخلف خليفة إلا له بطانتان بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله" رواه البخاري .

٣- **الحرب النفسية على المسلمين**: قام هولاكو بحملات إرهابية قريبة من العراق ليتسامع بها أهل بغداد فترعبهم؛ لأن هناك من أبناء بغداد من وُلد في فترة الركود فلم يعرفوا عن التتار إلا ما ذكره آباؤهم وأجدادهم. وانتشرت مقولات عن

التتار في ذلك الزمن نشرها التتار واستخدموا من المسلمين من يكتبها في رسائل فصيحة تحمل التهديد والوعيد.

٤- **إضعاف جيوش المسلمين**: طلب هولاكو من وزير الخلافة العباسية (ابن العلقمي) أن يقنع الخليفة العباسي (المستعصم بالله) أن يخفض ميزانية وجنود الجيش العباسي، وهذا ما حصل، فتم تخفيض الجند حتى بلغ عدد الجيش العباسي ١٠ آلاف جندي، بعدما كان عدده ١٠٠ ألف جندي سنة ٦٤٠هـ، والبقية صاروا إلى حالة من الفقر المدقع يسألون الناس في الأسواق أو تردت أحوالهم وعملوا في مهن بائسة!

والآن أصبحت كل الطرق قابله لاستيعاب الزحف التتري القادم، وتوافرت المعلومات، وتمت التحالفات، وتأكد هولاكو من انهيار معنويات المسلمين، وعرف إمكانيات الخليفة العباسي. دامت هذه التجهيزات قرابة خمس سنوات وأصبح الوقت مناسباً للاجتياح! تجهز الجيش العرمرم ووضع هولاكو في قلب الجيش (كتبغا) القائد النصراني المحنّك. وانضم بعض جنود المسلمين التابعين لأمراء الموصل ودمشق مع هذا الجيش الضخم وباعوا هم ومن أرسلهم دينهم بعرض من الدنيا قليل وللأسف!

سقوط بغداد ٦٥٦هـ

اجتمع هولاكو مع مستشاريه وقرروا غزو (بغداد)، ثم قسم جيشه ثلاثة أقسام كل جيش يحاصر جهة من بغداد لتصبح محاصرة من ثلاث جهات! وعلى الرغم من أن هذا الاجتماع كان في إيران وعلى بعد ٤٥٠ كم من بغداد إلا أن العيون العباسية —إن كان ثمة عيون– قد نامت عن هذا الجمع التتري وعن تخطيطه الرهيب!

وعلى إثر ذلك التخطيط بدأت الجيوش الثلاثة تزحف نحو بغداد حتى وصلوا جميعاً لها في وقت متقارب على الرغم من عدم وجود وسائل اتصال بينها وخطورة اكتشاف أمرهم من قبل العباسيين! بل أعجب من ذلك حين قطع أحد الجيوش الثلاثة ديار المسلمين ومنها (تركيا) و(بعض بلاد العراق) ولم يعترضه أحد حتى باغت بغداد وهو على بعد ٥٠ كم!

وهذا يدل على خيانة بعض أمراء المسلمين الذين سار ذلك الجيش على أراضيهم ولم يعترضوه، وأحد أولئك الخونة الذين سمحوا للتتار بالعبور على أراضيهم كان عمره آنذاك ٨٠ عاماً أو ١٠٠ عام، ومات بعدها بأشهر!

خريطة (١٢) : جيوش التتار المشتركة في حصار "بغداد"

الوضع في بغداد:

المدينة : كانت بغداد من أشد المدن حصانة في العالم، لكن الحصون تحتاج إلى رجال، كانت تحت خلافة (المستعصم بالله) الذي وإن أثنى على عبادته بعض العلماء لكنه كان يفتقر لعدة أمور كالنخوة والشجاعة والإعداد وحسن اختيار الحاشية والحزم مع المنكرات المنتشرة في بغداد كأماكن اللهو والمجون والخلاعة.

الحكومة: كانت كالحاكم ليس همهم إلا جمع الثروات واللهث خلف الملذات والخيانة.

الشعب: (كما تكونوا يولَّ عليكم) كان يبلغ ٣ ملايين نسمة تقريباً، فهي أكثر مدن العالم ازدحاماً، لكنهم مترفون، ألفوا الدعة والراحة، بعض الملتزمين منهم اكتفى بتحصيل العلم دون العمل به ونسي

فريضة الجهاد، وغير الملتزم عاش للذّاته وشهواته، لقد تنافس الشعب على صنوف الأطعمة والأشربة والملابس والجواري! وفوق ذلك كله ظلوا يسمعون بمذابح التتار التي حصلت للمسلمين قرابة ٤٠ عاماً ولم يتحركوا! سمعوا عن الحرق والقتل والأسر والتعذيب والزنا بالمحارم والحصار ولم يحركوا ساكناً!

الحصار:

وبينما المسلمون على تلك الحال إذ ظهر –فجأة– هولاكو قريباً من أسوار بغداد وذلك يوم ١٢/محرم/٦٥٦هـ وبدأ في نصب المعدات حول المدينة، وظهر (كتبغا) قائد الجيش الثاني، وأقبل الجيش الثالث، وأطبق الحصار على بغداد العظيمة!

ارتاع الخليفة وعقد اجتماعاً طارئاً مع وزرائه ومنهم ابن العلقمي الذي أشار بإقامة مباحثات سلام بينهم وبين هولاكو ولا بأس ببعض التنازلات، لكن اثنين من الوزراء هما (مجاهد الدين أيبك) و(سليمان شاه) أشارا بالجهاد (ولا ينعدم الخير في هذه الأمة!) لكن الوقت كان متأخراً جداً، ولربما كانا قد أشارا بالجهاد قبل ذلك ولم يُنصت لهما!.

وبعد حيرة وتردد طويل كأن الخليفة قبل على مضض رأي الوزيرين، فأمر بالجهاد فخرجت فرقة هزيلة من الجيش العباسي بقيادة (مجاهد الدين أيبك)، لكنه صعق لما رأى الحصار والتتار مع كل جهة بأعدادهم المهولة! ومع ذلك بدأ بتلك الفرقة يقاتلهم فأظهروا له الانسحاب حتى يستدرجوه –ولقلة الخبرة العسكرية– راح وراءهم

يطاردهم، لكن الخبثاء كروا عليه لما رأوه بعد عن المدينة وأتوا على أصحابه فكادوا يهلكون جميعاً، قُتل منهم الكثير ولم ينج إلا هو ونزر يسير من المجاهدين.

شُلّت بغداد ومن فيها من هول الصدمة، وعاد ابن العلقمي يشير بالمفاوضات حتى رضي الخليفة! ويالله العجب فقد أرسل الخليفة وزيرين من وزرائه للتباحث مع هولاكو هما (ابن العلقمي الرافضي) ووزير آخر كان نصرانياً، هما ممثلا دولة الإسلام!

دارت المفاوضات السرية وأُعطيت الوعود الفخمة وأهمها أن يكون الوزيران عضوين في مجلس الحكم بعد سقوط بغداد!

كانت الوعود التي أتى بها الوزيران للخليفة من هولاكو تتضمن عدة أمور منها: أن يبقى الخليفة على كرسي الحكم وأن يعطى أهل المدينة الأمان مقابل شروط كثيرة من أهمها: تدمير الحصون، وتسليم الأسلحة، وأن تكون بغداد راضخة لأمر التتار!

كانت نداءات الجهاد لا تنبعث إلا من الأفواه القليلة في بغداد، أما العامة فقد انخلعت قلوبهم من الرعب. لقد عظمت الدنيا في القلوب.

تلك الوعود والشروط التي أتى بها الوزيران ظلت تحت تفكير الخليفة، لكن هذا لا يرضي هولاكو لأن الانتظار يكلف الآلاف من الدنانير التي تنفق على الجيش!

بدء القصف ومصرع عرفة:

لم ينتظر هولاكو رد الخليفة على شروطه ووعوده فأمر ببدء القصف التتري، فها هي بغداد ترشق بالنبال التي كانت تسمع عنها، فامتلأت سماء بغداد بالنبال، لكن المؤلم حقاً هو أن الخليفة في هذا الوقت تحديداً كان يلاعب جارية له اسمها (عرفة) وكأن الأعداء في الصين!

وبينما هو يلاعبها إذ سقطت بين يديه صرعها أحد النبال التي كانت بغداد ترشق بها حين دخلٍ من إحدى النوافذ، قتلها وهي ترقص!

انزعج الخليفة من ذلك كثيراً، وجمع غضبه كله في أمر واحد وهو: أن تزاد الستائر على الشبابيك والنوافذ!

لقد تمكنت الدنيا من القلوب لدرجة يصعب معها تصديق ذلك لولا أن مثل ذلك يتكرر اليوم.

مفاوضات النهاية:

ظل التتار يقصفون بغداد حتى انهارت الأسوار الشرقية وانهارت معها معنويات الخليفة، فلجأ الخليفة في هذه الظروف لوزيره الرافضي مؤيد الدين ابن العلقمي فأشار له بالخروج إلى هولاكو للتباحث معه مكراً وخديعة منه، فوافق، ولما علم هولاكو بقدوم الخليفة أمره ألا يأتي وحده بل يخرج ومعه (٧٠٠) شخص من الوزراء والكبراء والأعيان والعلماء، وفعلاً خرجوا جميعاً في وفد كان مهيباً إلى خيمة هولاكو، وقبل الدخول اعترض الجند على الخليفة وأمروه أن يدخل هو فقط ومعه ١٧ رجلاً من كبار الدولة والبقية يحجبون على أنهم سيخضعون

للتفتيش، وكانت هذه خدعة من هولاكو لأن هؤلاء البقية تمت تصفيتهم وقتلوا ولم يعلم الخليفة بقتلهم إلا بعد خروجه من خيمة هولاكو.

أما اجتماع هولاكو بالخليفة فقد تمخض عن عدة أوامر شنيعة:

١- على الخليفة أن يأمر أهل بغداد بإلقاء السلاح، وكان هذا أمراً هيناً لأن البغداديين لا يستطيعون حمله أصلاً.

٢- تقييد الخليفة بالأغلال ويقاد ذليلاً ليدل على كنوز العباسيين وأموالهم.

٣- يُقتل ولدا الخليفة أمام عينيه وتؤسر أخواته.

٤- يُستدعى بعض علماء بغداد بأهليهم ويُذهب بهم إلى خارج بغداد ويذبحون، وتُؤخذ نساؤهم وأطفالهم سبايا. ومن هؤلاء العلماء (ابن العلامة ابن الجوزي) حيث ذبح أولاده. كما ذبح (مجاهد الدين أيبك) الوزير الذي أشار على الخليفة بقتال التتار وقاتلهم، وذبح خطباء وأئمة وحملة قرآن.

كان كل ذلك أمام عيني الخليفة الذليل! وزيادة على ذلك رأى تعامل هولاكو الرائع مع ابن العلقمي فعلم الحقيقة حينها.

استباحة بغداد:

وبعد أن ألقى أهل المدينة السلاح وقتل علية القوم وأسر الخليفة ولم يبق إلا العامة، أمر هولاكو باستباحة بغداد، وذلك يعني أن الجيش التتري يفعل ما يشاء: (يسرق- يقتل- يدمر- يحرق- يزني...)

وانطلقت الوحوش التترية تزدحم بها طرقات بغداد "لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة"!
كم من الجيوش الإسلامية خرجت من هذه المدينة؟!
كم من العلماء جلسوا يفقهون الناس في مساجدها؟!
كم من طلاب العلم الذين رحلوا إليها؟!
أين خالد والمثنى والقعقاع؟!
أين نخوة المسلمين؟! أين المجاهدون؟!
لا أحد!
استبيحت بغداد عاصمة الإسلام لخمسة قرون مضت، مدينة الرشيد، مدينة العلماء أبي حنيفة والشافعي وابن حنبل!
يقول صلى الله عليه وسلم: "إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى ترجعوا لدينكم" رواه أبو داوود.
صار التتار يتعقبون المسلمين، فكان المسلمون يهربون ويغلقون على أنفسهم الأبواب فيأتي التتار يحرقونها أو يقتلعونها فيصعد أهل البيت للسطح ولكن لا مناص يلحقهم التتار ويقتلونهم على أسطح منازلهم فتسيل دماؤهم وتقطر مع الميازيب!
قتلوا النساء إلا من استحسنوها منهن فيأخذونها سبياً. بل وجد تتري ٤٠ طفلاً حديثي الولادة قد قتلت أمهاتهم فألحقهم بهن! كان ذلك

على مرأى الخليفة الذي ذهب ملكه وقتل أبناؤه وأسرت أخواته وخانه وزيره ولا يدري ما ذا سيُفعل به!

يقول عز وجل:

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ النحل: ١١٢

عدد القتلى:

استمر القتل في بغداد ٤٠ يوماً، وقتل من أهلها مليون مسلم.. إنها كارثة أن تفقد أمة الإسلام مليون مسلم في ٤٠ يوماً فقط.. لذلك ما يحدث للمسلمين اليوم ليس بشيء مقارنة بتلك الفاجعة الأليمة!

رثى الواعظ شمس الدين الكوفي مدينة بغداد العتيقة بعدما خربت وراح عنها أهلها بأبيات تذيب الحجر، فقال:

عندي لأجل فراقكم آلام ... فإلام أعذل فيكم وألامُ
من كان مثلي للحبيب مفارقاً ... لا تعذلوه فالكلام كِلامُ
ويذيب روحي نوح كل حمامة ... فكأنما نوح الحمام حِمام
إن كنت مثلي للأحبة فاقداً ... أو في فؤادك لوعة وغرام
قف في ديار الظاعنين ونادها: ... يا دار ما صنعت بك الأيام
يا دار أين الساكنون وأين ذيّـ ... ـاك البهاء وذلك الإعظام
يا غائبين وفي الفؤاد لبعدهم ... نار لها بين الضلوع ضرام
لا كتبكم تأتي ولا أخباركم ... تُروى، ولا تدنيكم الأحلام
ياليت شعري كيف حال أحبتي ... وبأي أرض خيموا وأقاموا؟

خاتمة الخليفة:

لقد أمر هولاكو بقتل الخليفة، ولكن بطريقة مختلفة مذلة مهينة، لقد أمر أن يقتل رفساً بالأقدام! هكذا حدث! وضع مقيداً على الأرض وبدأ الجنود يرفسونه ويدوسونه ويركلونه حتى مات.

أي ذل ذاقه الخليفة في عدة أيام بعد سنين طويلة من العزة والرخاء.

وهكذا سقط آخر خلفاء بني العباس.. وسقطت الخلافة العباسية.. وسقطت بغداد.. وسقط الشعب كله!

مكتبة بغداد:

لم يكتف الأوغاد بالقتل! بل اتجهوا لعمل إجرامي بشع وهو تدمير مكتبة بغداد، أعظم مكتبة على وجه الأرض ذلك الزمن، مكتبة تحوي عصارة فكر المسلمين لأكثر من ٦٠٠ سنة! جمعت فيها كل الفنون والعلوم والآداب.

لقد دمر النصارى قبلها مكتبة قرطبة التي هي قريبة من ضخامة مكتبة بغداد إذ إن النصارى حين وصلوها حرقوها كلها بقيادة أحد قساوستهم! كتب بذلت فيها آلاف الأعمار والأوقات!

وصف مكتبة بغداد:

أسسها الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠هـ-١٩٣هـ) وظلت حتى عام ٦٥٦هـ ، فيها ملايين الكتب في زمن ليس فيه طباعة! ولك أن تتخيل أن مكتبة طرابلس التي أحرق فيها النصارى ٣ ملايين

كتاب لا تعد شيئاً إذا قورنت بمكتبة بغداد العظيمة! فكم كانت تحوي من الكتب والرسائل والمؤلفات!
كان فيها المئات من الموظفين (النسّاخون- المناولون- المترجمون...)، وفيها والأقسام المتعددة، وكأنها جامعة علمية!

ماذا فعلوا بها؟

حمل التتار الكتب (ملايين الكتب) وفي حماقة وغباء ألقوها في نهر دجلة. أمة همجية! حتى الكتب لم يفكروا أن يستفيدوا منها! تحول نهر دجلة حينها للون الأسود من الحبر، وقيل إن الفارس التتري كان يعبر النهر من ضفة لأخرى على الكتب! على علم العلماء!

واستمر القتل والتدمير والحرق، وامتلأت طرق بغداد بتلال الجثث المتعفنة، وسالت الدماء في أروقتها، وعمّ السكون بغداد فلا تُسمع إلا ضحكات التتار أو بكاء النساء والأطفال بعد أن فقدوا كل شيء!

وبعد ٤٠ يوماً من الاجتياح لبغداد:

أمر هولاكو بعدة أوامر دافعها الخوف على جيشه من مليون جثة متعفنة، هذه الأوامر كانت كالتالي:

١- خروج التتار من بغداد لكيلا يصاب بالأمراض والأوبئة نتيجة روائح الجثث المنتفخة المتعفنة.
٢- الإعلان بأمانٍ حقيقي لمن بقي حياً، فما إن تيقن المسلمون من ذلك خرجوا من مخابئهم ليدفنوا موتاهم، وهذا عمل شاق بالنظر لمليون جثة! خرج المسلمون من الخنادق والآبار

المهجورة ومن المقابر وقد تغيرت ملامحهم ونحلت أجسامهم وتبدلوا حتى أنكر بعضهم بعضاً. لقد خرج كل واحد منهم يفتش من بين تلال الجثث عن ابن أو أم أو أب أو أخت... وبدأ المسلمون بدفن الجثث.. ومع ذلك لم يسلموا من الأوبئة والأمراض فمات بعضهم جراء ذلك.

٣- إهانة مؤيد الدين ابن العلقمي وإذلاله حتى مات من الحسرة والكمد بعد أن أغلق عليه داره بعد عدة شهور!

قال تعالى:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ ١٠٢ ﴾ هود: ١٠٢

ويقول صلى الله عليه وسلم: "فوالله مالفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم" رواه مسلم.

اجتياح الشام

انتشر خبر واقعة بغداد الأليمة في العالم فأظلمت الدنيا في عيون المسلمين، كيف تكون الدنيا بلا خليفة؟!

ويا الله حين لم يزد هذا الخبر بعض أمراء الشام والموصل إلا ذلاً ودناءة وذلك حين جاؤوا لهولاكو يقدمون ولاء الطاعة، ومن هؤلاء الأمراء حفيد صلاح الدين الأيوبي!

أمير (ميافارقين):

هي مدينة شرقي تركيا، وأميرها من الأمراء الأيوبيين، كان بطلاً في زمن الجبناء، لم يأت ليقدم الولاء لهولاكو كأمراء الشام والموصل، هذا الأمير اسمه: "الكامل محمد الأيوبي". هذا الأمير أعلن الجهاد فما إن علم به هولاكو حتى أرسل ابنه فحاصره في قلعته وأحاطت به الجنود التترية فصار وسط أمواج من الكفرة والخونة والمنافقين! وفي هذه الأثناء جاءه رسول من التتار ليطالبه بالتسليم أو المباحثات فما كان من الكامل الأيوبي إلا أن قتله كإعلان بالحرب.

صمدت المدينة الباسلة وظهرت منها مقاومة ضارية.. لقد كانوا كراماً في زمن اللئام!

ولما اشتد الحصار طلب الكامل الأيوبي المساعدة والعون من حفيد صلاح الدين (الناصر يوسف) الذي قد قدم ولاء الطاعة لهولاكو، لكنه رفض مساعدته مقدماً رضى التتار على إخوانه!

سقوط ميافارقين سنة ٦٥٧هـ :

١٨ شهراً من الحصار الخانق سقطت على إثره هذه المدينة فقتل السفاح ابن هولاكو كل سكانها ودمر المدينة تدميراً، وأمسك بالكامل محمد الأيوبي واحتفظ به ليزيد في تعذيبه. ولما جيء بالكامل الأيوبي لهولاكو جمع كل شره وثورة غضبه في الانتقام من الكامل الأيوبي فقيده ثم أخذ يقطع أطرافه وهو حي ودس لحمه في فمه! في مشهد بلغ الغاية في البشاعة! ظل البطل على هذا التعذيب حتى صعدت الروح لبارئها ومات! وقطع رأسه بعد ذلك وطِيف به، ثم عُلّق على أحد أبواب دمشق! قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾ آل عمران: ١٦٩ – ١٧١

خريطة (١٢) : حصار "ميافارقين"

سقوط حلب:
حاصرها هولاكو سبعة أيام فقط ثم سقطت فدخلوها وهم متعطشون للدماء فقتّلوا المسلمين تقتيلاً، وتركوا النصارى.

حماة:
بينما كان هولاكو يعد العدة لاحتلال حماة جاءه –وللأسف– وفد منها معهم مفاتيح المدينة فسلموها له دون قتال!

دمشق:
وأميرها (الناصر يوسف) الذي علمنا أنه حفيد صلاح الدين والذي قدم الولاء لهولاكو والذي رفض مساعدة الكامل الأيوبي، لقد ساءت العلاقة بينه وبين هولاكو فما وجد إلا أن يتلاعب بشعائر الدين فماذا فعل؟ لك أن تتخيل أنه دعا إلى الجهاد كذباً وخداعاً، ودليل ذلك أنه كلما قربت جنود هولاكو فر منهم، ولما علم بقدوم هولاكو لدمشق فر منها وترك شعبه شعب دمشق يواجهون مصيرهم لوحدهم، والذين وللأسف قدم بعضهم أيضاً مفاتيح دمشق لهولاكو!
وسقطت دمشق سنة ٦٥٨هـ كواحدة من أعظم بلدان المسلمين!
دخلها التتار ومعهم هذه المرة النصارى، كان النصارى يتبخترون على خيولهم، وقاموا –بعد أن سمح لهم هولاكو– بالدخول مع أحد أبواب دمشق ومعهم صليب منصوب يحملونه أمام الناس وهم ينادون:

"ظهر الدين الصحيح.. دين المسيح"، والمسلمون من أهل دمشق ينظرون لهم وهم يسخرون من الإسلام ويذمونه جهاراً ولا ناصر لهم! وكان مع النصارى أوانٍ فيها خمر فلا يمرون على باب مسجد إلا رشوه بها، وكانوا يرشونه أيضاً في وجوه الناس وعلى ثيابهم، ويأمرون كل من يجتازون به في الأزقة والأسواق أن يقوم لصليبهم!

ثم إنهم دخلوا الجامع معهم خمر فلما وقع ذلك اجتمع قضاة المسلمين والفقهاء وراحوا يشتكون للتتار لكنهم أُهينوا وطردوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون!

عودة هولاكو:

جاءت الأخبار لهولاكو بموت زعيم التتار (منكوخان) فقرر الرجوع لمنغوليا، فهولاكو هو مُسقِط الخلافة العباسية ومرشح لزعامة التتار بعد أخيه (منكوخان)، ترك هولاكو على جيوشه القائد النصراني: (كتبغا)، أما هو فرجع، وفي الطريق جاءته الأخبار أيضاً بأن التتار اختاروا زعيماً آخر فقبل ذلك لكنه لم يرجع إلى جيشه الذي تركه بالشام بل توجه إلى تبريز الإيرانية، واستقر بها.

احتلال فلسطين:

ثم احتلها التتار وباتوا على مقربة من مصر.

والخلاصة: أن التتار أسقطوا العراق وأجزاء من تركيا وسوريا بكاملها ولبنان ثم فلسطين، كان كل ذلك في عامين فقط! وبدأ التجهيز لاحتلال مصر.

نظرة على الحكم في مصر وقت اجتياح التتار لبلاد الشام

كانت مصر تموج بالفتن، إذ توالى على كرسيها حكام كثر، وسنقفز متجاوزين الحديث عن المماليك الذين تعاقبوا على ملك مصر والخصومات التي دارت بينهم حتى نصل إلى الفترة الزمنية التي حكم فيها (سيف الدين قطز).

من هو قطز وكيف وصل إلى الحكم في مصر؟

اسمه الأصلي (محمود بن ممدود) وهو أحد الذين استرقهم التتار وهم أطفال وقتلوا أهلهم، ونشأ وهو يحمل الغل على التتار لما فعلوا بأهله. وقطز هو ابن أخت جلال الدين الخوارزمي الذي قاوم التتار وهرب للهند ومات فيها. أطلق عليه التتار وهو طفل لقب (قطز) بمعنى الشرس؛ لشدته وبأسه، وباعه التتار في سوق الرقيق في دمشق، ودارت الأيام به حتى جيء به إلى مصر ثم انتقل من سيد إلى غيره، وترقى بعد ذلك في الوظائف حتى صار قائداً للجيش في مصر، ثم شيئاً فشيئاً حتى صار ملك مصر!

نشأ نشأة دينية، وتعلم الفروسية.

استرقاق ثم بيع ثم مُلك ثم تكون نهاية التتار على يديه، وهم الذين نقلوه من أقاصي بلاد المسلمين إلى مصر ﴿ وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠ ﴾ النمل: ٥٠ .

كيف ملك مصر ؟

تتابع الملوك على مصر حتى آل الملك إلى أحد المماليك الذي لما مات جعل الملك في ولده الصغير والذي يبلغ من العمر ١٥ عاماً ، فتولى قطز الوصاية على هذا الطفل – وقطز هو قائد الجيش حينذاك–، وقد أحدث صعود هذا الطفل على عرش مصر اضطراباً وبلبلة في الشارع المصري، فقام قطز لتهدئة الوضع بتثبيت الأمن في البلاد والقبض على مثيري الفتن.

وإن كان قطز يدير الأمور فعلياً لكن الذي يجلس على عرش مصر طفل! وهذا يضعف هيبة مصر ويجعل الأعداء يطمعون بالبلاد.
لذلك لم يجد قطز بداً من قرار جريء تمثل في عزل هذا الطفل واعتلاء قطز بنفسه عرش مصر ليصبح قطز ملكاً عليها. كان هذا في سنة ٦٥٧هـ بعد عام من سقوط بغداد. وكان هذا القرار مغيراً لأحداث الأرض، فستكون بعده أحداث جسام ترفع فيها رايات وتوضع أخرى، وسيقع نتيجة لهذا القرار صدام عنيف جداً بين التتار والمسلمين.

أوضاع مصر السياسية والاقتصادية

الوضع السياسي الداخلي في مصر:
كان الوضع السياسي بالبلاد متأزماً جداً نتيجة التصارع على ملك مصر لفترات طويلة، قتل ملوك في تلك السنوات وتولى آخرون، وطمع آخرون، ولا يزال يتربص بالحكم المتربصون.

الوضع السياسي الخارجي :
كانت علاقات مصر ممزقة مع الشاميين والأفارقة حتى أضحت مصر في عزلة تامة.

الوضع الاقتصادي:
مصر حينذاك كانت في أزمة اقتصادية طاحنة جراء التصارع على الحكم والفتن الداخلية والخارجية.

الإعداد لعين جالوت

هكذا تسلم قطز مصر وهي مثقلة بهذه المشاكل والوضع المتردي، فمشى بمصر في خطوات موزونة حتى أنقذها مما هي فيه –بفضل الله– ، وهذه الخطوات:

الخطوة الأولى: تهدئة الوضع الداخلي في مصر، وقطع الأطماع بالحكم لكن ليس بالقوة والقمع بل باللين والصدق والأخلاق حتى ارتفع بمنافسيه إلى آفاق عالية ومستويات رفيعة، ووحد صفهم وحملهم على توحيد الهم.

لقد جمع قطز القادة والعلماء وأصحاب الرأي في مصر بل جمع منافسيه فقال لهم في وضوح: "إني ما قصدت – أي في تولي الحكم– إلا أن نجتمع على قتال التتر، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو فالأمر لكم، أقيموا في السلطة من شئتم". فهدأ معظم الحضور بعد ذلك ورضوا.

وكان من لوازم توطيد الحكم: العزل والتولية، فعزل وولى وقبض على رؤوس الفتنة في مصر من الذين يحاولون الخروج على الحكم، وشغَل المجتمع المصري بالجهاد، وأخذ يعد العدة ويجهز الجيش، وأقام الشرع وأدى مصالح العباد، وأصلح المجتمع حتى استقرت مصر داخلياً.

الخطوة الثانية: أصدر قطز عفواً حقيقياً عن المعارضين لملكه والذين فر بعضهم خارج البلاد، فكان هذا القرار الرائع رأباً للصدع وجمعاً للكلمة، وبهذا وفد إلى مصر كثير ممن فرّ منها ومنهم (ركن الدين

بيبرس) واستقبله قطز استقبالاً باهراً لما له من مكانة وقيادة وعامله كالأمير وسيجعله على قيادة الجيش كما سيأتي.

الخطوة الثالثة: ترتيب الوضع السياسي الخارجي والتوحد مع الشام، لكن (الناصر يوسف) أمير دمشق وحلب لم يستجب لنداءات قطز، وسبحان الله مرت الأيام فسقطت حلب كما ذكرنا واستبيحت دمشق أيضاً وفر الناصر وانضم جيشه لقطز! بل انضم أيضاً جيش مدينة (بانياس) وأميرها —ولله الحمد-.

وخلاصة ذلك: ١- أصبح الوضع السياسي الداخلي مستقراً. ٢- المهمة الأولى لمصر واضحة وهي جهاد التتار. ٣- العفو التام عن المعارضين. ٤- انضمام جيش الشام لجيش مصر. وبهذا أصبحت مصر —سياسياً- مستقرة.

الشعب المصري قبل المعركة المرتقبة:

هل كان شعب مصر قادراً على الوقوف أمام تلك القوة العاتية التي أسقطت نصف العالم؟

الواقع أن مصر تعيش أزمة اقتصادية طاحنة، وكانوا يحتاجون لمن يرفع عندهم قيمة الدين حتى تهون الدنيا في أعينهم. كان لزاماً أن ترفع همة الشعب، ولذا فإن من فضل الله على مصر حينذاك أن حفظ لها علماء أجلاء وحفظ لها العلم الشرعي الذي يُدرس بجوامعها رغم الأحداث السياسية المضطربة التي سبقت حكم قطز.

كان الدين بشرائعه معظماً في نفوس المصريين، إلا أن الخوف عند سماع التتار لايزال كلما اقتربوا.
وإن من العلماء الذين هيأهم الله لمصر في ذلك الوقت والذي كانت له بصمة تاريخية في تلك الأحداث: (سلطان العلماء: العز بن عبدالسلام).
لم يزل (الجهاد في سبيل الله) معظماً في النفوس؛ لأن مصر كانت مسرحاً للحملات الصليبية السابقة، فعلم المسلمون من خلالها أنه لا سبيل لدفع العدو إلا برفع راية الجهاد، ولذلك بقيت مكانة الجهاد كما هي قوية عظيمة، وعلى إثر ذلك بقي جيش مصر أيضاً مستعداً دائماً تربى جنوده على حب الشهادة في سبيل الله.

قطز في المواجهة:

بينما كان قطز في إعداده المتحمس وخطواته السريعة وترتيبه المستعجل لأوراقه مستغلاً الوقت قبل مجيء التتار إذ جاءته رسل هولاكو يخبرونه أن اللقاء أسرع مما توقع وأن الحرب تقرع طبولها وهي على الأبواب، وقطز كان يحتاج لبضعة شهور للإعداد وإذا بالأيام تتسرب بين يديه والحرب مفروضة عليه!
جاءت الرسل تحمل رسالة من هولاكو كان فيها من الوعيد والتهديد ما تنخلع له القلوب ولا يثبت أمامها إلا الأبطال، لقد كانت تحمل السم الزعاف بين أسطرها: إما التسليم المُذل أو الحرب الوشيكة.

عقد قطز اجتماعاً طارئاً بالأمراء والقادة والعلماء، ليأخذ رأيهم مع أنه مصمم مسبقاً على الجهاد لكن لا بد من الشورى لأنهم سيواجهون أعتى قوى الأرض ومهما كان لدى الأمراء والأعيان والقادة من الإيمان إلا أن الاختيار صعب بالنظر لإمكانيات الجيشين من ناحية : (العدد- العدة- الدمار الذي خلفه التتار- المساحات التي يملكها التتار...) كل ذلك جعل الأمراء في الاجتماع يترددون في الاختيار.

ماذا فعل قطز لما رآهم بهذا التردد؟!

لقد قال لهم قطز في شجاعة وبسالة: "أنا ألقى التتار بنفسي" قالها ليخبرهم أنه لن تموت نفس حتى يأذن الله وأن الشجاعة لا تقصّر عمراً كما أن الذل لا يطيله. وهذا هو الطريق الأول الذي قام به قطز لتحفيز الأمراء.

أما الطريق الثاني الذي قام به معه تذكيرهم بعظمة الهدف الذي يسعون له لينتشلهم من مطامع الدنيا التي غرقوا فيها، ويحلق بهم إلى آفاق عالية جداً: إلى حب الشهادة في سبيل الله وتعظيمها واحتقار أي تضحية في سبيل ذلك حتى قال لهم: "أنا متوجه.. فمن اختار الجهاد فليصحبني ومن لم يختر ذلك يرجع لبيته وإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين —يعني عن القتال-". ثم جاشت نفس قطز وتهيجت مشاعره بصورة أكبر فوقف يخاطب الأمراء في الاجتماع وهو يبكي ويقول:

"يا أمراء المسلمين.. مَن للإسلام إن لم نكن نحنُ"
إنها كلمة هائلة!! كلمة تلهب الحماس في النفوس! إنها تعني أن بعضاً من المسلمين ينتظر عمر بن الخطاب أو صلاح الدين أو أحمد بن حنبل أو ابن تيمية أو... لما لا تكن أنت الذي تنتظره الأمة؟!
وقعت الكلمة في قلوبهم فبكوا جميعاً وأعلن بعضهم تأييد قطز وتكلم آخرون بخير.

إذاً .. مصر تعلن الجهاد على التتار!

ماذا فعل قطز برسل هولاكو ؟!

لقد جاءت الرسل قطز ولم يمض على حكمه لمصر ٣ أشهر.. لا تنس هذا!
لقد قرر قطز أن يقتل الرسل ويعلق رؤوسهم في القاهرة حتى يراها الشعب فيطمئنوا أن قائدهم لا يهاب التتار، وأن هذا إعلان بالحرب ولكي لا يترك للناس أي مجال للظن بأن قرار الحرب قد يتراجع عنه أو أن هناك حل سلمي قد يكون! وإعلان للتتار أيضاً بأن المسلمين في مصر قوم بواسل يختلفون كثيراً عن سابقيهم!

وقفة مع قتل الرسل:

اجتهد قطز في قتله رسل هولاكو، مع أن الرسل في الإسلام لا تقتل، ولا يُعرف سند قطز في فعله ذاك، وهذه مسألة فقهية يرجع لها.

مشكلة اقتصادية:

لا بد من تجهيز الجيش المسلم وتموينه وإصلاح القلاع وإعداد العدة وتخزين ما يكفي الشعب من المؤن والغذاء، هناك أشياء وأشياء! والتتار قريبون في غزة فماذا سيفعل قطز؟!

عقد اجتماعاً مع الأمراء والعلماء (ومنهم: العز بن عبدالسلام) واقترح قطز أن تفرض الضرائب على الشعب لدعم الجيش. وهذا الاقتراح مع أن غايته نبيلة —وهي دعم الجيش- لكنها تحتاج إلى فتوى! ولما عرضت الفتوى على العز بن عبدالسلام لم يجز ذلك إلا بشرطين:

١- ألا يبقى في بيت مال المسلمين شيء.

٢- أن يبيع الأمراء والوزراء والقادة كل ما يملكون حتى لا يبقى مع أحد إلا فرسه وسلاحه، ويتساوون بذلك مع العامة من الناس، أما أخذ أموال الناس مع بقاء ما في أيدي الأمراء والوزراء من أموال وذخائر فلا!

قَبِل قطز هذه الفتوى، وبدأ بنفسه وباع كل ما يملك وأمر الأمراء والوزراء بفعل ذلك فانصاع الجميع، واكتشف المسلمون أن مصر غنية وبها أموال طائلة كانت بأيدي علية القوم، وحينذاك تساوى الحاكم والمحكوم، وصلح القائد مع شعبه وتجهز الجيش المسلم!

الجهاد الإعلامي:

بدأ الخطباء والعلماء يلهبون حماس الشعب في حملة إعلامية كبيرة، يرغبون في الجهاد والشهادة، ويزهدون في الدنيا، ويذكرونهم بالماضي

المجيد لانتصارات المسلمين حتى اشتعل الحماس في قلوب الناس وتجهزوا للمعركة الحاسمة.

الجهاد في فلسطين:

اجتمع قطز بالمجلس العسكري لبحث أفضل طريقة لقتال التتار، فطرح قطز رأيه الذي قام بعده المجلس ولم يقعد! اقترح قطز أن يذهب للتتار بدلاً من انتظارهم! ووضح أسباب اختياره لهذا الرأي، ومنها: أن ذلك سيؤثر في نفوس الأعداء سلباً والذين اعتادوا على كون المسلمين في موقف الدفاع دائماً، وأن ذلك سيحدث مفاجأة للعدو، وهكذا رجح رأي قطز ووافق المجلس على رأيه!

مشكلة الإمارات الصليبية التي في الطريق:

كانت هناك إمارات صليبية في طريق جيش المسلمين إلى فلسطين، فعقد قطز مع هذه الإمارات معاهدات تجعل النصارى في موقف الحياد وقت مواجهة المسلمين مع التتار، وهذه المعاهدات تنتهي بانتهاء الحرب، وحذرهم قطز إن هم خانوه أن يترك التتار ويتوجه لهم. وبعد هذه المعاهدة أصبح الطريق لعين جالوت ممهداً.

وتطهر الجيش المسلم:

ومع كل ذلك الإعداد إلا أن بعضاً من ضعفاء الإيمان لم يصدق بعد أن قتالاً وشيكاً سيحدث، فإذا هم لما اقترب الوعد تزعزعت قلوبهم

فهرب البعض منهم واختبأ البعض الآخر، فطهر الله الجيش ولم يبق إلا الذين اصطفاهم الله، كما حدث في أحد!

قال تعالى: ﴿ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ ﴾ التوبة: ٤٧

إلى فلسطين:

تحرك الجيش إلى فلسطين بعد تجمع قواته في القاهرة وغيرها من المدن الكبرى، وساروا على بركة الله : اللهم هون علينا سفرنا هذا واطو عنا بعده..

وكان قطز قد وضع على مقدمة الجيش (ركن الدين بيبرس) ليكون أول من يصطدم بالتتار، وجعله على رأس فرقة من الجيش كبيرة نسبياً وأمرها أن تتقدم على بقية الجيش ليعتقد العدو أنها هي الجيش بأكمله، وجعلها تتقدم كثيراً، أما بقية الجيش فيتخفّى حتى لا يراهم جواسيس التتار.

أول النصر في غزة:

اكتشفت جواسيس التتار الفرقة التي تقدمت عن بقية الجيش والتي على رأسها (ركن الدين بيبرس) فظنوها الجيش بأكمله، فأسرعت كتيبة تترية لقتال بيبرس، وفعلاً تم قتال سريع انتصر فيه بيبرس؛ لتنتقل الأخبار بعدها إلى (كتبغا) قائد التتار الذي عينه هولاكو ليحل محله.

كانت مفاجأة صاعقة للتتار أن بقي على الأرض مسلمون يقاتلون! لقد اعتادوا على ذلهم وخنوعهم!
لقد كان الانتصار دافعاً نفسياً للمسلمين ومحفزاً لهم، رأوا فيه كذب تلك المقولة التي راجت في ذلك الزمن، والتي تقول: "من قال لك أن التتار يُهزمون فلا تصدقه".

إلى عين جالوت:

قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ ﴾ الصف: ٤

اتجه قطز إلى منطقة تسمى عين جالوت قريبة من موقع معركة حطين، وهي منطقة سهلة مناسبة للمعركة، وهي عبارة عن سهل واسع تحيط به التلال من كل جانب إلا جانباً واحداً فإنه مفتوح، فكأن السهل حذوة حصان، وتعلو تلك التلال المحيطة بالسهل أشجار وأحراش مناسبة للاختباء بها وعمل الكمائن فيها.
رتب قطز جيشه بسرعة فوضع على الجهة المفتوحة مقدمة الجيش التي هي بقيادة ركن الدين بيبرس، وجعلها في مكان بارز كطعم للتتار يغريهم بالتقدم، وأخفى قطز بقية الجيش خلف التلال والأشجار.
كان هذا الترتيب والإعداد في يوم ٢٤ / ٩ / ٦٥٨هـ ، في شهر الانتصارات.

موقعة عين جالوت العظيمة

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧ ﴾ محمد: ٧

بينما قطز يستعد في سهل عين جالوت إذ بأعداد غفيرة من المتطوعين البسطاء قد خرجوا من المدن والقرى يريدون الانضمام للجيش الإسلامي، وما فعلوا ذلك إلا حين رأوا القدوة الذي فقدوه من زمن طويل وليس كالقواد السابقين الكاذبين!

لم يتجاهلهم قطز إنما استخدمهم في أعمال لا تحتاج للخبرة، كنقل العتاد والقيام بشؤون الطعام وإمداد الجنود بالسلاح وعلاج الجرحى؛ كي يوفر قطز بذلك طاقة المحاربين للمواجهة، ويكاثر بهم العدو.

واجتمع الفلاحون أيضاً والكبار ومن لا يستطيع القتال لعذر على طرفي السهل وارتفعت صيحاتهم تشجيعاً للقوات الإسلامية وضجوا بالدعوات لهم.

ثم وصل جيش التتار الذي يقوده (كتبغا)، تسبقه سمعته البغيضة في سفك الدماء وتخريب الديار وإفناء البشر، وصلت جنوده وقد استكبروا وعتوا عتواً كبيراً، فأخذوا مواقعهم أمام القوات الإسلامية التي وقفت في ثبات.

جند الله في جيش التتار:

وحين كان قطز منهمكاً في تجهيز جيشه جاء رجل من أهل الشام يطلب لقاءه ويقول: إنه جاء من قبل رجل يسمى (صارم الدين أيبك)، وهذا الرجل لا يعرفه قطز، وهو أحد المسلمين الذين أسرهم

التتار واستخدمهم هولاكو في خدمة جيشه، ولا يُدرى هل قبل خدمة التتار راضياً أم مضطراً وهو ينوي خدمة المسلمين بذلك، الله أعلم به!

ما هي المعلومات التي أتت من هذا الرجل؟

قال رسول صارم الدين أيبك لقطز هذه المعلومات، وهي:

١- جيش التتار لم يعد بقوته المعهودة، لأن هولاكو الذي يقيم الآن في تبريز بإيران معه جزء من الجيش.

٢- ميمنة التتار أقوى من ميسرتهم.

٣- أن كتيبة من المسلمين في جيش التتار —ومعهم صارم الدين- جاهزة للانسحاب أثناء المعركة لزعزعة التتار.

كانت معلومات غاية في الروعة والأهمية، رفعت معنويات الجيش، لكن قطز تعامل معها بحذر كونه لا يعرف صارم الدين هذا!

ليلة المعركة:

كانت إحدى ليالي العشر من رمضان، ليلة الخامس والعشرين من سنة ٦٥٨هـ، ليلة من أعظم ليالي الدنيا، صباحها سيكون فيه لقاء دام يثأر فيه المسلمون للملايين الذين سفك التتار دماءهم، إنها ليلة خالدة قضوها في دعاء وابتهال.

وحان وقت الفجر فصلاها المسلمون في خشوع وخضوع، ثم بدأوا في ترتيب صفوفهم.

الموقعة الخالدة:

أشرقت شمس ذلك اليوم، فأضاءت سهل عين جالوت، فرأى المسلمون من بعيد جحافل التتار.

ولم يكن بسهل عين جالوت أحد من المسلمين، كان فارغاً منهم، كانوا جميعاً خلف التلال حتى الكتيبة التي يقودها بيبرس، إلى أن أشار لها قطز بالنزول لساحة المعركة.

وبدأت القوات الإسلامية التابعة لتلك الكتيبة فقط بالنزول، ثم تتوجه للاقتراب من التتار. أما بقية الجيش لا يزال مختبئاً خلف التلال.

يتحدث (صارم الدين أيبك) الرجل المسلم في جيش التتار الذي أرسل لقطز المعلومات عن التتار، فيقول:

لما طلعت الشمس ظهرت أول كتيبة من عساكر المسلمين وكانوا باللون الأحمر والأبيض بخطوات ثابتة وعُدد مليحة "فبُهت كتبغا ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ البقرة: ٢٥٨"؛ إنها أول مرة ينظرون فيها إلى جيش مسلم منظم كهذا التنظيم منذ عقود طويلة، كانوا معتادين أن يظهر المسلمون بصورة باهتة ضعيفة، نزلت تصحبها دقات الطبول، فقال كتبغا: "يا صارم.. رنك من هذا؟!" يعني هذه كتيبة مَن؟ فقال صارم: هذه كتيبة فلان..

ثم نزلت كتيبة أخرى بلون أصفر جميل، فسأل كتبغا: "رنك من هذا؟!" قال صارم: هذه كتيبة فلان..

وكلما نزلت كتيبة سأله كتبغا وصارم يجيبه أن هذه لفلان وهذه لفلان بأسماء من عنده يؤلفها ولا أصل لها!

يقول صارم: فصرت أي شيء يطلع على لساني قلته؛ ليلقي الرعب في قلب كتبغا قائد التتار.

وبعد أن نزلت القوات الإسلامية التابعة لكتيبة الظاهر بيبرس فقط – والتي ظن التتار أنها الجيش الإسلامي كله- بدأت تُضرَب الطبول وتُقرع الصنوج النحاسية. لقد كانت هذه الضربات والإيقاعات عبارة عن أوامر من قطز يتلقاها جنود الظاهر بيبرس من غير أن يعرف التتار أنها أوامر، ولم يتوقعوا أنه سبق للمسلمين أن تدربوا عليها!
كانت هناك دقات معينة لميمنة الجيش، وأخرى للميسرة، وضربات للتقدم وأخرى للانسحاب؛ وبذلك يستطيع قطز أن يدير المعركة عن بعد من خلال هذه الضربات والدقات!

وحانت ساعة الصفر:
نظر كتبغا للكتيبة وظنها الجيش كله، ولم يعلم شيئاً عن بقية الجيش خلف التلال؛ لذلك قرر أن يدخل بجيشه كاملاً للقضاء على هذه الكتيبة والتهامها في أسرع وقت ممكن، وفعلاً انحدرت جيوش التتار، وهذا ما كان يريده قطز!
انهمر التتار واقتربوا من كتيبة الظاهر بيبرس، وارتطم الجيشان ارتطاماً مروعاً، وارتفعت الصيحات وتعالت سحب الغبار، وبدأ البسطاء والفلاحين على جانبي السهل بالتكبير، وماهي إلا فترة يسيرة حتى تناثرت الأشلاء وسالت الدماء، واحتدم اللقاء وحمي الوطيس.

ثبتت الكتيبة الإسلامية مع قلتها مما جعل كتبغا يستخدم كل قواته ولم يترك للاحتياط شيئاً. كان قطز يرقب الموقف من بعيد ويصبر نفسه وجنوده، ومرت الدقائق والساعات وكأنها السنوات!

كان هذا هو الجزء الأول من الخطة.

أما الجزء الثاني منها فيتمثل في دق الطبول والتي هي أوامر من قطز يعرفها الظاهر بيبرس ورجاله ليبدأوا في تنفيذها.

كانت هذه الضربات التي سمعها الظاهر بيبرس ورجاله أمراً بالتراجع البطيء نسبياً في خطوات موزونة، فلا هو تراجع سريع فيلفت أنظار التتار للخطة، ولا تراجع بطيء فينهك قوى جنود الكتيبة فيهلكون. فبدأ بيبرس بالتراجع وهو يقاتل بقدرة فائقة.

تحمس كتبغا لما رأى هذا الانسحاب وبدأ كامل الجيش التتري بالنزول للميدان ولم يترك أحداً في الاحتياط، وهذا خطأ عسكري فادح من قائد خبير، لكنه تدبير العزيز الحكيم.

هذا هو الجزء الثاني من خطة قطز، أما الجزء الثالث فبدأ تنفيذه حين جاءت إشارة البدء من قطز عن طريق ضرب الطبول.

كتبغا في المصيدة:

أمر قطز عن طريق الطبول كتائبة المختبئة خلف التلال والأشجار بالنزول لساحة المعركة، فتهاوت الكتائب الإسلامية كالشهب بصيحات عاليات هزت أرض المعركة وأذهلت أنظار التتار، وطوقت الكتائب الإسلامية -في وقت قصير- كتبغا وجنده دون ترك أي

فرصة للهرب! واكتشف كتبغا الخطة الإسلامية بعد فوات الأوان، وطاش عقله منها، وتخبطت أفكاره ولم يعد قادراً على فعل شيء سوى أن يقاتل قتال المستميت.

وبدأ الصراع المرير في معركة هي من أشد المعارك التاريخية ضراوة، فقاتل التتر بكامل قوتهم، وبكل حمية لديهم، وظهر تفوق الميمنة التترية كما أخبر (صارم الدين أيبك) وبدأ ضغطها يتضاعف للخروج مما هي فيه حتى كثر الشهداء من المسلمين، وقطز يرقب هذا الضغط من بعيد في مكان عالٍ كابحاً جماح نفسه، فأمر بقواته الاحتياطية أن تساند ميسرة المسلمين التي تواجه ميمنة التتار، لكن الوضع بدأ يتأزم جداً، وقطز لا يزال يدفع بالاحتياط حتى اضطر قطز للحل الوحيد والأخير!

وا إسلاماه:

كان الحل الوحيد الذي رآه قطز أن ينزل بنفسه للميدان. لابد أن يثبت أنه مع جنوده، وأن الموت في سبيل الله غاية نبيلة، ففعل قطز فعل البواسل، فعل فعلاً مجيداً: لقد ألقى بخوذته على الأرض تعبيراً عن شوقه للشهادة وعدم مبالاته بالتتار، وأطلق صيحته الشهيرة التي قلبت موازين المعركة. لقد صرخ قطز بأعلى صوته:

"وا إسلاماه.. وا إسلاماه".

وألقى بنفسه وسط أمواج متلاطمة من البشر؛ ففوجئ جنوده برؤيته في ساحة المعركة يقاتل كما يقاتلون، فكان ذلك كفيلاً بإشعال

الحماس من جديد في نفوسهم؛ فهانت أنفسهم عليهم في سبيل الله، وانطلقوا يكرون على التتار بجسارة.

وبينما قطز يقاتل قتال الأشاوس، وبينما هو في لجج المعركة إذ بسهم تتري يُصَوّب نحوه لكنه أخطأه وأصاب فرسه، فسقط الفرس وسقط قطز، ثم قام قطز وأكمل القتال مترجلاً يقاتل ماشياً ولم يتردد لحظة واحدة، فرآه أحد قواد جيشه فجاء له بخيله لكن قطز امتنع وظل يقاتل ماشياً حتى جيء له بفرس من خيول المسلمين الاحتياطية.

وحين لامه البعض —بعد ذلك- على عدم ركوبه الفرس وأنه لو قتل لانهزم المسلمون وأصيب الإسلام، أجابهم بقوله: " أما أنا فكنت أروح للجنة.. وأما الإسلام فله رب لا يضيعه". وبدأت بعد ذلك كفة المسلمين تميل من جديد، وضيقوا الدائرة على التتار.

مصرع الطاغية:

وتقدم أحد قواد المسلمين المهرة فاخترق الصفوف، وحمل حملة صادقة حتى وصل إلى (كتبغا) قائد التتار، ورفع البطل سيفه ثم هوى به على رقبة الطاغية حتى طار رأسه وتدحرج على أرض المعركة، ﴿ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ ﴾ الأنفال: ١٧.

توقفت العقلية التترية، وتغير —بعدها- سيناريو القتال، فلم يكن للتتار من همٍّ حين رأوا قائدهم قتل إلا الخروج من هذا التطويق الخانق، فانطلقوا لإحدى النواحي وركزوا جهدهم لفتح ثغرة في المسلمين والمسلمون لازالوا يمزقونهم، وفعلاً استطاع التتار بعد جهد

شديد أن يخترقوا ذلك التطويق، فانطلقوا هاربين والمجاهدون خلفهم حتى وصلوا لمكان يبعد عن أرض المعركة قرابة ٢٠ كم يقال له: (بيسان)، ولازال المجاهدون وراءهم يطلبونهم، ولما رأى التتار تلك الجدية عند المسلمين في الطلب رتبوا صفوفهم من جديد وتصادموا مع المسلمين مرة أخرى لتدور معركة أخرى حامية كادوا أن ينتصروا فيها على المسلمين، فابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً.

كان قطز وسط تلك المعمعة، فلما رأى تجدد المعركة أطلق صيحته التي لا زال صداها يتردد على صفحات التاريخ، ونادى بأعلى صوته: " وا إسلاماه .. وا إسلاماه .. وا إسلاماه" ثم ابتهل لله –عز وجل– داعياً وصاح قائلاً :" يا الله انصر عبدك قطز على التتار"!

نهاية التتار:

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ غافر: ٥١.

فما إن انتهى قطز من دعائه حتى خارت قوى التتار وبدأ الجنود الذين ملأوا الأرض رعباً من عشرات السنين يتساقطون قتلى كالذباب.. وقضى المجاهدون على تلك الأسطورة المرعبة.

وارتفعت راية الإسلام وانتصر هذا الدين العظيم.

وللقارئ أن يعجب حين يعلم أن التتار في هذه الواقعة الخالدة قد قتلوا جميعاً فلم يبق منهم أحد.. أبيدوا عن بكرة أبيهم، وفني الجيش الذي كان يملك نصف الأرض سفك فيها دماء الملايين، ودمر مئات المدن، وعاث في الأرض فساداً ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ لَكُمۡ وَلِتَطۡمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ ﴾ آل عمران: ١٢٦

انتصر الأبطال في زمن الانكسار.. انتصر الأبطال في زمن لم تتهيأ فيه ظروف النصر؛ ليتحقق وعد الله في بيانه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ الحج: ٤٠، ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ الروم: ٤ - ٥

الخاتمة

وهكذا تبين للقارئ أمراض الأمة وأسباب العلاج..

إن ضياع هوية المسلمين، وبعدهم عن دينهم، وركونهم للدعة والترف، وتوسيد الأمر لغير أهله، وضعف الأخذ بالأسباب، وارتخاء الولاء والبراء، والفرقة والتناحر، هي أمراض تفتك بجسد الأمة كما هو معلوم، وعلاجها بضدها.

وحين ينتظر كل منا أن يقوم الآخرون بالإصلاح فذلك يعني أن هذا الضعف سيبقى طويلاً إلا أن يشاء الله!

لا يلزم أن تحيا في زمن النصر، بل انتصر ولو مت قبله! انتصر لهذا الدين بعمل أو مشروع أو دعوة أو إصلاح، فإن تحقق النصر فأنت مساهم فيه، وإن لم يتحقق فعلى الأقل لم تكن سبباً في تأخره!

إن انتصار الأمة ليس في ساحات الوغى فقط! لا، بل إن الانتصار هو الثبات على المبدأ، فإن الله سمى ثبات المسلمين الذين أُلقوا في الأخدود فوزاً كبيراً.

انتصار الأمة يبدأ بإشهار سيف الجد المصلت على رقبة الهوى.

إن المعارك بيننا وبين الكفر كثيرة، معارك إعلامية، وفكرية، وقتالية، فلتكن على الأقل – في هذا الزمن - جندياً في المعركتين الأوليين.

ولتعلم أن كل دقيقة تعملها لله هي انتصار منك لهذا الدين، ولن ينتصر لهذا الدين من لم ينتصر على أهوائه.

رد الله الأمة لدينها، وأصلح أحوال المسلمين

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد

تم هذا الاختصار بفضل الله في ٣٠/ ١ / ١٤٣٩هـ

اختصره:

عبدالله بن سعود المعدي